



العلمانية الفرنسية

"مجد ابي" و"قصر امي" كتابان يقرأهما الاولاد الذين يتعلمون الفرنسية عادة في السن الحادية عشرة او الثانية عشرة، لكنهما قد يكونان مفيدتين ايضاً، لو كانا مترجمين الى العربية، للبالغين ممن يتدافعون اليوم لانتقاد فرنسا بسبب مشروع القانون الرامي الى منع ارتداء الحجاب في المدارس الرسمية. فهذان الكتابان اللذان تضمنتا مذكرات الطفولة للكاتب المسرحي والسينمائي مارسيل بانبول، يرسمان صورة العلمانية الفرنسية كما رسخت في بدايات القرن العشرين حين كانت الجمهورية الثالثة في اوج معركتها ضد الكنيسة، وميدان هذه المعركة مذكور في المدرسة. او لنقل، حتى لا نكون سذجاً، ان قراءة هذين الكتابين، او مشاهدة الفيلمين اللذين اقتبسنا أخيراً عنهما، قد يفيد من تدخل في هذا النقاش من دون اهداف نضالية واضحة، بل فقط من باب استهجان ما بدا لهم ضيق صدر الفرنسيين بالمسلمين.

اما الآخرون ممن يحرّكون الحملة الراهنة ضد فرنسا، فينظمون التظاهرات، وان ظلت لحسن الحظ محدودة، ويسخّرون شاشة التلفزيون لغرضهم، ويتصدون بتهمة الاساءة الى الاسلام لمن لا يشاطرهم الموقف - فالارجح ان لا شيء سيغيّر رأيهم الذي لا يُسأل عن اي مسوغ غير ذاته، اسوة بكل فكر توتاليتاري. هذا المنحى التوتاليتاري عند دعاة الاسلام السياسي، او ما يسمى تجاوزاً الاصولية الاسلامية، ليس جديداً في الحقيقة. لكن ما نشهده راهناً من تعبئة ضد فرنسا وتهديد لها، يذهب ربما ابعد من خطف الاجانب في لبنان الحرب، ليس لسبب الا انهم اجانب، او حتى الفتوى بهدر دم سلمان رشدي، وفي معنى من المعاني ابعد من الهجمات الارهابية على نيويورك وواشنطن.

فما نحن في صددنا مع ردود الفعل الاسلامية (العربية) على القرار الفرنسي، هو خطف لبلد باكملة لا ناقة له ولا جمل بالـ"خاطفين" غير استعداده لمصادقتهم. ليس الموضوع هنا السجال الذي دار في فرنسا (وبين المسلمين الفرنسيين) حول الحجاب، ولا حتى حول اشكالية الحجاب والسفور، وان يكن بات لزاماً على الثقافة العربية طرقها مجدداً، على الاقل اكراماً لذكرى هدى شعراوي وعنبرة سلام الخالدي وغيرهما من العربيات المسلمات في القرن العشرين اللواتي اعتبرن خلع الحجاب تحرراً. الموضوع يكمن في السهولة التي يقارب بها بعض دعاة الاسلام السياسي قضية تتصل بصيرورة مجتمع لا يعرفونه، فيسقطون عليه مفاهيمهم الخاصة بدل اخذ خصوصيته في الاعتبار.

ولعل اسوأ هذه الاسقاطات هو الذي يقود الى التعامل مع المجتمع الفرنسي، عن وعي او عن غير وعي، على اساس انه مجتمع مسيحي. فلو كان ذلك صحيحاً، لكانت الامور اسهل بكثير، ولأمكن ادراج قضية الحجاب في سياق حرب دينية مزمنة كالتالي تصوّر ها بن لادن في هلوسته الاخيرة عن "غزوة الروم".

على النقيض تماماً. اذ لا يمكن فهم ازمة الحجاب في فرنسا الا في سياق مجتمع تراجع فيه الدين ودولة اقصت الكنيسة عن السياسة والمؤسسات العامة. انه سياق الجمهورية الفرنسية، تلك الدولة التي ولدت من ثورة فريدة كانت في وجه من وجوها موجّهة ضد المؤسسة الدينية، ثم امضت اكثر من قرن في حرب اهلية كانت احياناً كامنة و احياناً كثيرة طاحنة. وقد بلغت هذه الحرب اوجها في



نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين في ما سمي تحديداً "معركة المدرسة"، قبل ان يصدر قانون فصل الكنيسة عن الدولة عام ١٩٠٥، وبينما كان "جيش" الجمهورية الثالثة المتمثل بمعلمي المدارس الابتدائية، على غرار والد مارسيل بانيول، يربي الاجيال على رفض تدخل رجال الدين في الشأن العام. فاذا كانت فرنسا، "ابنة الكنيسة البكر"، على ما كانت تسمى، لم تتراجع في المواجهة مع القيم على ديانتها "الاصلية"، فأى سبب سيجعلها تتصاع بعد نحو قرن الى املاءات دينية مستجدة عليها؟

بالتأكيد، ليست الثقافة التي سادت خلال هذا القرن وقلصت حيّز الفكر الديني حتى قبل ثورة ايار ٦٨ ما قد يدفع فرنسا الى التهاون مع الاسلام اكثر مما تهاونت مع الكاثوليكية، ولا طبعاً قيم التحرر الفردي التي انتشرت جراء تلك الثورة الاخيرة وتجلت في ما تجلت في حرية المرأة.

سمير قصير



Id-Reference	04-Pr-000622	
Media	(Support)	HC
Title		العلمانية الفرنسية
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٤/١/٩ 9/1/2004
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	مارسيل بانبول - بن لادن - سلمان رشدي - هدى شعراوي - عنبرة سلام خالدي
	Locations	فرنسا - لبنان - نيويورك - واشنطن
	Dates	1905
	Themes	فرنسا - حجاب - اسلام - علمانية - فكر توتاليتاري - اصولية اسلامية - سلمان رشدي - مجتمع فرنسي - مجتمع مسيحي - كنيسة - جمهورية فرنسية ثالثة - ثقافة - ثورة ايار ٦٨ - حرية امرأة
Subject		